

الموضوعية الذاتية والأطر الإلحادية

Subjective Objectivity and Atheistic Paradigms

الباحث: ط.د، بن جمعة خثير¹ / عيمر أحمد جمال الدين²

ahmed_a_d@hotmail.com khattir.bendjemaa@univ-tlemcen.dz

مخبر الدراسات الشرعية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان.

تاريخ الاستلام: 2024/12/19 تاريخ القبول: 2025/02/19 تاريخ النشر: 2025/05/15

ملخص:

يبرز البحث عدم إمكانية فصل الذات عن الموضوع كلياً، وبالتالي تأثيرها في الموضوع، وبما أننا نعمل تحت أطر معرفية وعلمية سابقة لذواتنا وموضوعاتنا لا بد أن تؤثر هذه الأطر في الذات والموضوع، ثم يبين شيوع الأطر الإلحادية خاصة في المدارس الغربية مثل الداروينية والوجودية والعلمانية، التي نحن تبع لها في الغالب، لنبه الباحثين والدارسين عموماً إلى خطورة هذه الأطر ومن ثم طرح بعض سبل الانفكاك عنها خاصة في الدراسات العقدية.

الكلمات المفتاحية: الموضوعية _ الذاتية _ الأطر الإلحادية.

Abstract:

The research highlights the impossibility of completely separating the self from the subject, and thus its influence on the subject. Since we operate within cognitive and scientific frameworks that precede our selves and subjects, these frameworks inevitably impact both the self and the subject. The study emphasizes the prevalence of atheistic Paradigms, particularly in Western schools of thought such as Darwinism, existentialism, and secularism, to which we are largely subjected. It aims to alert researchers and scholars to the dangers of these Paradigms and proposes some ways to disengage from them, especially in doctrinal studies.

Keywords: objectivity, subjectivity, atheistic Paradigms.

مقدمة:

كل باحث ينتمي إلى طبقة اجتماعية معينة لها ثقافتها وقيمها ومعاييرها وإيديولوجياتها وسياساتها الخاصة، بالتالي هو يتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه، والمطلوب من الباحث الاتسام بالموضوعية باعتبارها أيقونة النظام المعرفي الراهن في البحث العلمي سواء في العلوم الإنسانية أو الطبيعية.

وفي الحقيقة المشاكل التي تعترى البحث في العلوم الإنسانية كثيرة، ومن أهمها مشكلة الموضوعية، ذلك لأن كثيرا من المشكلات متفرعة عنها، بل هي المشكلة المحورية والمفصلية خاصة في طبيعتها وخلفيتها الفلسفية.

ولقد أثبتت كثير من الدراسات أن الانسان خلال توليد المعرفة لا يخلو من أطر يعمل تحتها شعر أم لم يشعر، والناس بما فيهم العلماء تختلف نظرتهم للوجود وكثيراً من الغريبيين كفرويد ودوركايم وماركس وهم رواد نظريات بارزة ملاحظة، والمغلوب مولع بتقليد الغالب كما نص على ذلك ابن خلدون¹ أحد البارزين في علم الاجتماع.

فما هي الموضوعية؟

وما مدى تحقيقها في البحث العلمي؟

وهل يمكن تحقيق الموضوعية تحت هذه الأطر الإلحادية؟

المبحث الأول: تحديد مصطلحات العنوان.

لا بد من صناعة الأراضية المفاهيمية التوافقية، كما قال ابن حزم: "لا بد من تسمية متفق عليها وإلا فلا فهم ولا إفهام"²، وغياب المفاهيم المنضبطة هو غياب اللغة المشتركة للتفاهم والحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلنبداً بتعريف الموضوعية والذاتية (الفردية) وسأقتصر على التعريف الاصطلاحي فقط ثم نتطرق إلى الأطر الإلحادية .

¹ مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدريوش، ط 1، 2004م، الفصل الثالث والعشرون، في أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب، في شعاره وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده، ص 283.

² الأصول والفروع، ابن حزم، تحقيق: عاطف العراقي وآخرون، ط 1، 2004م، دار الثقافة الدينية القاهرة، ص 203.

المطلب الأول: تعريف الموضوعية objectivity.

لم يكن مصطلح الموضوعية الغربي النشأة مستعملا في تراثنا الإسلامي، إلا أن البديل المعرفي الذي ينطوي عليه قد استعمل تحت أسماء أخرى مثل القسط والعدل والانصاف، والنزاهة، والحياد، والأمانة في النقل.

يقول عبد الوهاب المسيري عن الموضوعية أنها مصدر صناعي من كلمة «موضوع»، وهي إدراك الأشياء على ما هي عليه دون أن تشوهها نظرة ضيقة أو أهواء أو ميول أو مصالح أو تحيزات أو حب أو كره، ولذا فإن وُصف شخص بأن "تفكيره موضوعي"، فإن هذا يعني أنه اعتاد أن يجعل أحكامه تستند إلى النظر إلى الحقائق على أساس العقل وبعد معرفة كل الملابسات والظروف والمكونات³. ويقول الموضوعية هي "العلم الخالي من القيمة والأحكام الأخلاقية"⁴.

ويقول صلاح قنصوه: "الموضوعية هي غياب لكل عوامل التحيز، وكف لتأثيرها"⁵.

فالتصور السائد أن العلوم لها مناهج وهذه المناهج تمكن الباحث أن يُصور الواقع كما هو ويكتشف ويضع النظريات من غير هوى أو اعتقاد ديني أو فلسفي أو غرض ما، هذه هي الموضوعية في صورتها المثالية.

فهو ذلك الحياد العلمي والتجرد من الرغبات والأهواء الشخصية تجردا تاما، بترك الأدلة تفسر نفسها بنفسها لتنتج الأحكام، شبيهة بالآلة الفوتوغرافية التي ترصد المشاهد دون انتقاء ودون قيم مسبقة.

المطلب الثاني: تعريف الذاتية Subjectivity.

الذات: النفس والشخص، يقال: في الأدب نقد ذاتي يرجع إلى آراء الشخص و انفعالاته و هو خلاف الموضوعي (محدثة)⁶ وما يقابل أو يضاد الموضوعية هو الذاتية وإليك مقارنة بين الذاتية والموضوعية مختصرة من كلام عبد الوهاب المسيري، لتبين الأمور أكثر من باب قولهم "بضدها تبين الأشياء":

³ موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ج 1/ص 192. بتصرف.

⁴ إشكالية التحيز، عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط 1، 1995م، ج 2، ص 416.

⁵ الموضوعية في العلوم الإنسانية، صلاح قنصوه، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 2007، ص 65.

⁶ المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، ج 1/ص 638.

كلمة «الذاتي» تعني «الفردية»، أي ما يخص شخصاً واحداً، فإن وُصف شخص بأن «تفكيره ذاتي» فهذا يعني أنه اعتاد أن يجعل أحكامه مبنية على شعوره وذوقه، ويُطلق لفظ «ذاتي» توسعاً على ما كان مصدره الفكر لا الواقع، ومنه الأحكام الذاتية (مقابل الأحكام الموضوعية) وهي الأحكام التي تعبر عن وجهة نظر صاحبها وشعوره وذوقه، فمعرفتنا بالواقع محدودة تماماً عن طريق خبرتنا الذاتية الخاصة وتجربتنا الفريدة ووعينا وإدراكنا.

و«الذاتي» في الميتافيزيقا هو رد كل وجود إلى الذات، والاعتداد بالفكر وحده، أما «الموضوعي»، فهو رد كل الوجود إلى الموضوع، أما في نظرية المعرفة، فإن «الذاتية» تعني أن التفرقة بين الحقيقة والوهم لا تقوم على أساس موضوعي، فهي مجرد اعتبارات ذاتية، وليس ثمة حقيقة مطلقة، أما «الموضوعية» فتري إمكانية التفرقة، وفي عالم الأخلاق، تذهب الذاتية إلى أن مقياس الخير والشر إنما يقوم على اعتبارات شخصية إذ لا تُوجد معيارية متجاوزة (يعني لا تتجاوز الذات إلى المطلق)، أما الموضوعية فتري إمكانية التوصل إلى معيارية، وفي عالم الجمال، تذهب الذاتية إلى أن الأحكام الجمالية مسألة ذوق، أما الموضوعية فتحاول أن تصل إلى قواعد عامة يمكن عن طريقها التمييز بين الجميل والقيح⁷، ويُطلق لفظ «ذاتي» توسعاً على ما كان مصدره الفكر لا الواقع.

لكن المعلومة الدقيقة والمفصلة في الإلهيات لا تأتي إلا من خلال الوحي، وهو مصدر غير مقبول عند الملحد أو الكافر.

المبحث الثاني: الموضوعية الذاتية.

بعد التطرق لتعريف الموضوعية ثم الذاتية وعقد مقارنة بينهما نود في هذا المبحث تقرير عدم انفكاك الموضوع عن الذات وهو المقصود بالمركب "الموضوعية الذاتية" الذي يوحى باستحالة الموضوعية⁸.

السؤال الوارد هو من الذي يتحدد ويتجرد، الموضوعية أم الذات الواعية⁹؟ لأن الموضوعية وليس الموضوع لا وجود لها إذا لم تكن هناك ذات، ويزداد الأمر تعقيداً حينما يكون الموضوع إنساناً، وحين فلترة المعلومات يستعين العقل بالذاكرة، وهذا منافي للتجرد التام، لأن الذي يحدد للعقل هو أطر الإدراك السابقة.

⁷ موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ج 1/ص 193، بتصرف.

⁸ من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، عبد الكريم شرقي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط 1، 2007م، ص 86.

⁹ يعني الذات التي تعي الموضوع وتفهمه.

وقد نص وليد قصاب على هذا المعنى بقوله: "إنّ المنهج في أصل تعريفه هو طريقة في التعامل مع النص تعاملًا يقوم على أسس ذات أبعاد فكرية وفلسفية من خلال إجراءات دقيقة تتوافق مع الأسس الفكرية المذكورة..."¹⁰ فقد ربط المناهج النقدية بخلفيات إديولوجية فكرية تنبع من تصورات عقديّة للكون والحياة والإنسان.

يقول تيري إيجلتون: "إنّ وجود نظرية أدبية خالصة هي أسطورة أكاديمية وبعض النظريات لا تظهر إديولوجيتها في أي مكان آخر بالوضوح الذي تظهر به في محاولتها تجاهل التاريخ والسياسة تجاهلاً تاماً..."¹¹ كما يؤكد دانيال برجيز بأن: "تبني الناقد لمنهج معين يعني تبني مفهوم معين للإنسان ذاته..."¹² ويستحيل أن ننظر إلى الموضوع من خلفه على حد تعبير هيغل، ومراده عدم إمكانية التجرد الكلي.

يقول المسيري: قد واجه الفلاسفة مشكلة الاستقطاب الحاد بين الذات والموضوع (الواحدية الذاتية والواحدية الموضوعية)، وطُرحت القضية التالية: هل الذات قادرة على معرفة الموضوعات، أم أن الموضوعات برانية¹³ بحيث لا يمكن الوصول إليها؟ وهل الذات هي مقياس حقيقة الأشياء أم أن الموضوع يحتوي نظامه دون ارتباطه بالذات الإنسانية؟ وقد حاول كثير من فلاسفة القرن العشرين حل إشكالية ثنائية الذات والموضوع عن طريق إلغائها تماماً، فقالوا:

1_ لا يمكن انفصال الذات عن الموضوع، فالموضوع ليس شيئاً مستقلاً عن الإرادة البشرية وإنما هو الفعل الناجم عن ممارسة القوة (فلسفات القوة).

2_ قال الفريق الثاني: إن الفعل ليس هو في ذاته ولكنه نتائج وآثار الفعل (الفلسفة البرجماتية).

3_ والفريق الثالث يقول: لا هذا ولا ذاك وإنما هو ما يتجه نحوه الوعي (الفلسفة الفينومينولوجية)¹⁴، ومن ثم فلا وجود للذات خارج الموضوع، وهي تستمد وجودها من تقابلها معه¹⁵.

¹⁰ مناهج النقد الأدبي، وليد قصاب، دار الفكر دمشق، ط2، 2009م، ص20.

¹¹ نظرية الأدب، تيري إيجلتون، ترجمة ثائر ديب، وزارة الثقافة، دمشق 1965م، ص 326 - 327.

¹² مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، دانيال برجيز، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1987م، ص12.

¹³ يعني خارجية ومنفصلة تمام الانفصال عن الذات.

¹⁴ ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، عبد الكريم شرقي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2007م، ص87.

¹⁵ موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ج1/ص201. بتصرف.

فالموضوعية بمعنى خلو الذهن وتجرده من الأفكار المسبقة ومشاهدة الواقع كما هو غير ممكنة ومتعذرة، في العلوم الطبيعية ومن باب أولى في العلوم الإنسانية لبعدها عن الدقة الموجودة في الطبيعيات خاصة إذا كان الموضوع الإنسان نفسه.

يقول حمد المرزوقي: فالقطيعة المعرفية بين الباحث وموضوع بحثه غير ممكنة الحدوث¹⁶.

وقد بين طه عبد الرحمن أن الناظر في وسائل المنهج¹⁷ العقلي العلمي، يجدها هي الأخرى متصفة بتكلف الموضوعية¹⁸.

والذي جعلهم يقولون ذلك:

__ ما يجده الباحث في نفسه خلال البحث من كونه لا يتخلى عن أفكاره، لأن هذه الموضوعية لا تنفك عن ذات واعية.

__ تغير النظرة أو الموقف: بالاطلاع على تاريخ العلم من خلال كتاب توماس صامويل كون¹⁹ (Kuhn) على سبيل المثال الموسوم " بنية الثورات العلمية The structure of scientific revolutions " أكد فيه أن الناس من عهد إلى عهد تتغير نظرتهم للعلم ولمفهومه ولمنهجه ... ولو كان ثمة موضوعية منفصلة عن الذات لما تغيرت النظرة وتطورت العلوم، بل يذهب الفيلسوف هيراقليطس²⁰ إلى أن الإنسان نفسه متغير من يوم لآخر وهذا يعقد القضية أكثر ... حيث يقول: " لا يمكنك أن تستحم في النهر مرتين " يعني هو دائما في تغير، وإن كانت النظرة الإسلامية لا توافقه تمام الموافقة، إلا أن المرء يمكن أن يتغير من جهة أفكاره وميوله ورغباته.

¹⁶ أفي الله شك، حمد المرزوقي، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت لبنان، ط1، 2004م، ص78.

¹⁷ ينظر كتاب أثر المناهج الغربية في تغريب القراءة الدينية، السيد هاشم الميلاني، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق، ط1، 2024م. كله حول الأطر الغربية ومدى تأثيرها في المناهج الإسلامية.

¹⁸ سؤال الأخلاق، طه عبد عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000م، ص67.

¹⁹ The structure of scientific revolutions

²⁰ هيراقليطس فيلسوف التغير وأثره في الفكر الفلسفي، علي سامي النشار وآخرون، ط1، 1969م، دار المعارف، ص7.

— وبما أن أساس الموضوعية هو الاستقراء، أي التعميم من عدد من الحالات، يمكننا أن نسأل: كيف يحق للإنسان أن يعمم الظواهر الفردية على كل الظواهر التي تندرج تحت هذا النوع في الماضي (الذي لم يرصده الإنسان) والحاضر (الذي رصد بعض حالاته) والمستقبل (المجهول تماماً)؟ وإذا كانت الحواس الفردية للإنسان من مصادر المعرفة، فهل هي مصدر يمكن الاعتماد عليه؟ كل هذا يُبيّن أن الكلام عن معارف كلية يقينية (تتوصل إليها من خلال عمليات الربط والتعميم) أمر يتنافى مع الموضوعية، وأن أي كلام عن معارف يتوصل إليها من خلال الحواس يفتقد المصدقية، ولذا تتلاشى الموضوعية في اتساقها مع نفسها وتسقط في ذاتية كاملة²¹ وحسب الرؤية الموضوعية المادية نفسها، كل حبيس حواسه وحبيس التفاصيل التي يرصدها.

مع أن القول بعدم إمكانية الموضوعية التامة في العلوم الإنسانية وغيرها لا يعني بالضرورة النسبية التامة، خاصة الأخلاقية منها²².

ومن المسالك البعيدة عن التحقيق بدعوى الموضوعية، وهي كون من أراد الكتابة خاصة عن مقالة أو فرقة، رجع إلى أصحابها، وردد مقالاتهم فما ادعوه لأنفسهم أثبتته، وما نفوه نفاه، وهذا يوقع الباحث في زلة ترديد الدعاية، والباحث بحق هو الذي يميز بين الدعاية وما عليه شواهد وأدلة، فيعتبرها شهادة تحتاج إلى فحص وتدقيق، لا أن نهايته ترديد ما زعموه لأنفسهم وما نافحوا به عن مذهبهم²³.

— إذا تقرر أنه لا بد من تدخل الذات وتأثير الأفكار السابقة والمفاهيم الخاصة في الأحكام، فمن أين لنا بهذه الأفكار والمفاهيم والمعتقدات، هذا ما سنتطرق له تحت العنوان التالي، الأطر الإلحادية.

المبحث الثالث: الأطر الإلحادية.

قال ابن فارس: **الهمزة والطاء والراء أصل واحد، وهو عطف الشيء على الشيء أو إحاطته به، قال أهل اللغة: كل شيء أحاط بشيء فهو إطار.** ويُقال لما حوّل الشقّة من حرفها إطار²⁴.

²¹ وهو ما أشرت إليه في العنوان بالموضوعية الذاتية.

²² مقال أسطورة النسبية الأخلاقية، د. جوناثان دولتي، ترجمة: أمين قاسم، <https://radicalacademy.org/atheismyth.html>.

²³ كتاب أثر المناهج الغربية في تغريب القراءة الدينية، السيد هاشم الميلاني، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق، ط1، 2024م.

²⁴ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.

وفي كتاب العين: كل شيء محيط بالشَّيء فهو إطار له²⁵، وفي تهذيب اللغة، قال الليث: الإطار إطار الدُّف وإطار المنخل، وإطار الشَّفة، وإطار البيت، كالمنطقة حول البيت، وتجمع على أواطر وأطر، قال الأصمعي: إِنَّ بينهم لأواصر رحم وأواطر رحم²⁶، وقال ابن سيده: والجمع أطر وهي أَكْفَةُ الأظفار التي حولها والإِطَارُ كل ما استدار على شيء مثل الغُزْبَال²⁷ والمعنى المراد في بحثنا هو ذلك السائد من الأفكار والنظريات والآراء الميتافيزيقية الماورائية والقيم حيث لا يُخرج عنها غالبا.

يذكر الباحث الأمريكي كون: "أَنَّ لكل حقبة إطار فلسفي يعمل الناس تحته شعروا أم لم يشعروا"²⁸، ومن خلال تغير الإطار (البراديغم) تتغير طبيعة فهم العلماء للأمور، كما تتغير أفكارهم وطرق رؤيتهم السابقة بصورة جذرية، ويقول الفيلسوف الملحد دانييل دينيت: "لا وجود لعلم يخلو من الفلسفة؛ إنما هناك علم يحمل أمتعته الفلسفية دون أن يتعرض للفحص"²⁹.

وعليه فالأطر الإلحادية هي مجموعة من المفاهيم والنظريات التي تفسر الكون والحياة من دون الحاجة إلى وجود إله، وهذه بعض الأمثلة الرئيسية على الأطر الإلحادية:

النظرية التطورية: تفسر ظهور الحياة والتنوع البيولوجي دون الحاجة إلى تدخل إلهي، "بسببها أُعْلِن الإلحاد وانتشر في أوروبا وانتقل إلى بقاع العالم"³⁰، وقد أثرت هذه النظرية في ماركس³¹ وفرويد³² ودوركايم³³

²⁵ العين، الخليل بن أحمد، باب عول، ج2، ص102، والصحاح في اللغة، الجوهري، باب أطم، ج1، ص15.

²⁶ المرجع نفسه.

²⁷ المخصص، ابن سيده، ج1/ص105.

²⁸ Tomas Kuhn, The structure of scientific revolutions, Chicago, university of Chicago, press1962.

²⁹ Dennett, Daniel C. "Darwin's dangerous idea." The Sciences 35.3, press 1995.

³⁰ الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، مكتب التبيان للدراسات العربية وتحقيق التراث، إشراف حسن عبد الحفيظ عبد الرحمان أبو الخير، دار ابن الجوزي، ط1، 2011، ج2/ص918.

³¹ كارل ماركس: عالم اقتصاد واجتماع، تركز شهرته على جهده الهائل للكشف عن القوانين التي تتحكم في سلوك الناس في المجتمع وصياغتها وكان ثورياً نشطاً، ت1883م. خلفا كتاب "رأس المال" المحتوي على أفكار إلحادية. ينظر كارل ماركس، كامل محمد محمد عويضة، الطبعة الأولى 1993م، دار الكتب العلمية، ص11.

وغيرهم، من كبار الفلاسفة الذين تدرس نظرياتهم في الجامعات العربية وغيرها.

الوجودية الإلحادية: اتجاه فلسفي أدبي إلحادي يؤكد على أن الإنسان يخلق معنى حياته بنفسه دون الحاجة إلى إله، وهي فلسفة عن الذات أكثر منها عن الموضوع.³⁴

الطبيعانية: تؤكد على أن الطبيعة هي المصدر الوحيد للوجود والمعرفة، ويمكن فهم الكون من خلال العلم والتفكير العقلاني.

³² سيغموند فرويد: طبيب أمراض عصبية نمساوي يهودي، أشهر علماء التحليل النفسي، سعى لتحطيم كل العقائد الدينية، وجعل الجنس عقيدة وهدفا في هذه الحياة، وباركت الصهيونية والماسونية ترهاته، ت1939م. Jay, Martin Evan. "Sigmund Freud". Encyclopedia Britannica, 3 Dec. 2024, <https://www.britannica.com/biography/Sigmund-Freud>. Accessed 12 December 2024.

³³ إميل دوركايم: عالم اجتماعي فرنسي ت1917م، يعتبر من مؤسسي علم الاجتماع الحديث. Peyre, Henri M.. "Émile Durkheim". Encyclopedia Britannica, 11 Nov. 2024, <https://www.britannica.com/biography/Emile-Durkheim>. Accessed 12 December 2024.

³⁴ الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، مكتب التبيان للدراسات العربية وتحقيق التراث، إشراف حسن عبد الحفيظ عبد الرحمان أبو الخير، دار ابن الجوزي، ط1، 2011، ج2/ص904.

كلها مذاهب مادية تؤكد على أن الواقع المادي هو الوحيد الموجود وأن الظواهر الذهنية والروحية هي مجرد خصائص للمادة.

هذه الأطر الإلحادية تقدم تفسيرات بديلة للأصول والمعنى والغرض من الوجود الإنساني خارج نطاق الدين والإيمان بآله، وقد أثرت هذه الأطر بشكل كبير على الفلسفة والعلوم الاجتماعية والثقافة في العقود الأخيرة.

والأطر هذه تُحدّد انطلاقا من النظرة للوجود أو وفقا لما يعترف الإنسان بوجوده، والمنهج هو المؤدي إلى هذا النوع من الموجودات، والمدرس لا ينتبه للإطار غالبا فلا يصح قائلًا: "الإطار هو كذا" ومعظم من يأتي علماء وطلاب وعاديون يعمل في هذا الإطار العام دون انتباه.

فتحت أي إطار فلسفي نحن نعمل حاليا؟

العلوم توضع خاصة عند الغربيين¹ في إطار إلحادي مادي، ولنأخذ على سبيل المثال: علم النفس وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد تجد روادها، سيغموند فرويد، إميل دوركايم وكارل ماركس، ثلاثتهم ملاحدة "وهم من أهم أسس الإلحاد في العالم"² والخلفية العقدية لا بد من حضورها، ولهذا تُفسّر الأشياء داخل الكون، ولا اعتراف بأثر من خارج الكون.

ولأن هذا العلم الغربي جاء بعد ذلك الصراع بين أصحاب هذا العلم³ ورجال الدين الكنسي فكلما تغلب على المسيحية ابتعد عن الدين فلما كانت الغلبة للعلم اعتبروه انتصارا على الأديان كلها، باعتبار أن المسيحية هي الحق عندهم وما عداها باطل فإذا كانت النصر على المسيحية فعلى باقي الأديان من باب أولى.

¹ إذا تكلمت عن الغربيين فأغلبنا تبع لهم كما هو الواقع ...

² الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، ج2/ص899.

³ هناك خلط بين لفظي العلم والمعرفة في العربية تبعا لسوء التمييز بينهما في اللغة اللاتينية أدى إلى خلط في التصور، ينظر مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية، جعفر شيخ إدريس، ص218.

يقول كاتب مقال تاريخ العلم في دائرة المعارف البريطانية: "إن تصور المعرفة الذي كان سائدا في ق 16، يختلف اختلافا جذريا عن مفهومنا اليوم".¹ يقصد القرن العشرين، فهو يجد صعوبة في تفهم العلم التجريبي في الإطار الديني الذي يفسر الأمور مراعيًا أمورًا غيبية.

ويقول عبد الوهاب المسيري تحت عنوان، الواحدة الموضوعية المادية: "مع اختفاء الحدود والمسافة التي تفصل الكل عن الجزء، يختفي الحيز الإنساني الذي يفصل الذات عن الموضوع، فيذوب الجوهر الإنساني ويمتزج بالكل الموضوعي، ومن ثم تتحول الذات الإمبريالية المكتفية بذاتها إلى جزء من كل وتُرد في كليتها إلى ما هو خارجها تمامًا، أي إلى هذا الكل".² ويقول في موضع آخر مبرزًا الإطار الإلحادي وعدم إمكانية الموضوعية: "إذا قلنا «فلنكن موضوعيين» أو «فلنُحكِّم العقل» ولم نزد، فنحن نقول في واقع الأمر «فلنكن موضوعيين ولنُحكِّم العقل» في إطار المنظومة المعرفية السائدة التي تسبق كلاً من الموضوع والعقل"، وفي العصر الحديث نجد أن المنظومة المهيمنة هي المنظومة المادية ونموذج _ الثنائية _ الطبيعة/ المادة حيث لا فرق بين الطبيعة والإنسان لذا فإن عبارة بريئة مثل «فلنكن موضوعيين» تعني في واقع الأمر «فلنتجرد من عواطفنا وذكرياتنا ومنظوماتنا الأخلاقية وتراثنا ولنرصد الواقع الإنساني والطبيعي كما هو»، أي أن كلمة «موضوعية» بشكل مجرد تعني عادةً «الموضوعية المادية» أو «المتلقية» (تماماً كما أن كلمة «عقل» بشكل مجرد تعني «العقل المادي»). وبهذا المعنى، فإن الموضوعية هي، في واقع الأمر، العقلانية المادية في مرحلة التمرکز حول الموضوع (لا التمرکز حول الذات)، وأنها نتاج الرؤية المتمركزة حول الطبيعة/المادة... على عكس الذاتية، فهي نتاج الرؤية المتمركزة حول الذات والإنسان، وعادةً ما تدور في إطار المرجعية المادية الكامنة في الذات".³

فأنت ترى أن المنظومة المعرفية السائدة سبقت الموضوع والعلم⁴ وهي التي وضعت الإطار العام للاديني بل المعادي للدين وليس ملحدًا فقط بل هو مادي لا يؤمن إلا بجسد دون نفس.

¹ نقلا عن كتاب مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية، جعفر شيخ إدريس، ص 145.

² موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ج 1/ ص 128.

³ موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ج 1/ ص 194.

⁴ مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية، جعفر شيخ إدريس، ص 147.

ومن الأدلة على أن هذا الإطار إطار إحصائي، تجد أن دارون الذي أثرت نظريته التطورية (أصل الأنواع) في معظم الغربيين وهي مقررة في الجامعات هناك، كان يبحث عن عملية طبيعية صرفة لا يتضمن نموذجها تدخل القدرة الإلهية، يعني منذ البداية يريد تفسيراً لا دينياً¹، وكذلك دوركايم² تجده يُرجع الظاهرة الدينية إلى فكرة التضامن مع النظام الاجتماعي، والتفسير الذي يقترحه دوركايم هو أنها تعبير عن الإخلاص للنظام الاجتماعي وليست إخباراً عن الله، فالمجتمع إله نفسه كما ترى.

وتفسيرات فرويد للجنس وغيره تنطلق من نظريته للإنسان وهي أنه يولد مع الخطيئة، فالشر جزء لا يتجزأ من طبيعته، وهكذا نظرية سكر³ في علم النفس مبنية على تصوراتهم للإنسان.

— فالتصور الإسلامي لمصادر المعرفة يختلف تماماً عن التصور الإحصائي الذي يجعل الكون وحده مصدراً للمعرفة ومع ذلك فمن الأخطاء عند العجز القول أن هذه إرادة الله فنقع في ما يسمى بإله الفجوات، the God of gaps، بل نقول الله خالق الأسباب وهو الذي جعلها أسباباً ولو شاء لعطّلها، فديننا يعترف بتنوع مصادر المعرفة.

وإذا كانت الأطر مادية فالموضوعية المادية المتفرعة عنها تلغي كل الثنائيات، وخصوصاً ثنائية الإنسان والطبيعة، ولها عدة خصائص منها:

— تدور الموضوعية المادية في إطار الواحدية السببية للعلوم واستبعاد الغيب وإنكاره.
— تنقل موضع الإدراك من العقل إلى الموضوع نفسه، فينبني عليه اتجاه دائم نحو الحتميات الموضوعية المادية المختلفة.

— استبعاد الإنسان كعامل قادر على تجاوز المعطيات المادية حوله، ورده في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير لتلك المعطيات.

— لا تعترف بالخصوصيات والمميزات، ومنها الخصوصية الإنسانية، فهي تُركّز على العام والمشارك بين الإنسان والطبيعة، ولذا فإن الفكر الموضوعي يُعبّر عن نفور عميق من الهوية والخصوصية.

— تنكر الغاية الإنسانية ولا بالقصد، فالغاية لا يمكن دراستها أو قياسها، كما أنها مقصورة على الإنسان دون عالم الطبيعة، ولذا تستبعد فكرة المعنى.

¹ مقال خبط عشواء أم تقدير حكيم؟، لجعفر شيخ إدريس، مجلة البيان العدد 221، فبراير 2006م.

² إميل دوركايم عالم اجتماعي فرنسي ت 1917م، يعتبر من مؤسسي علم الاجتماع الحديث.

³ Britannica, The Editors of Encyclopaedia. "B.F. Skinner". Encyclopedia Britannica, 5 Nov. 2024, <https://www.britannica.com/biography/B-F-Skinner>. Accessed 13 December 2024.

— تنكر الموضوعية المادية الإبهام، فهي تُفضّل الدقة الكمية التي يمكن استخدامها في دراسة كلّ من الإنسان والطبيعة، ولذا فهي تستبعد، بقدر الإمكان عناصر الإبهام.

— المعرفة نتاج تراكم للمعلومات فهي لا تؤمن بالمواهب لأنها لا تؤمن بالواهب (الله تعالى).

— يمكن تفسير سلوك الإنسان وأفكاره في إطار التأثير والتأثر الخارجي لا التوليد أو الإبداع الداخلي.

— الالتزام بالموضوعية (المادية) يعني أن يتجرد الباحث من ذاتيته وخصوصيته الحضارية والإنسانية، ومن عواطفه وحواسه وأخلاقه وكنيته الإنسانية، بحيث يمكنه أن يُسجّل ويصف بحياء شديد لدرجة تموت معها الأشياء، والإنسان نفسه يُرصد من الخارج كما تُرصد الأشياء.

ولقد تعددت المواقف في العالم الإسلامي إزاء هذا الموضوع وأشهرها ثلاثة¹:

1_ كما سبق ذكره أن التصور الشائع هو الأول الذي ينفي وجود الأطر، المتمثل في الموضوعية المثالية، حيث يكون الباحث متجردا لا يؤثر فيه هوى أو اعتقاد ديني أو فلسفي، وقد بينت في مبحث الأطر الإلحادية استحالة وجود موضوعية بهذا المعنى وأنه لا بد من التأثير بتلك الأطر.

2_ الاعتراف بالأطر ولكنهم عظموا الغربية وجعلوها هي الأطر، مثل الدكتور زكي نجيب محمود، وهذا الموقف إذا كان وصفا للواقع فهو المراد بالدراسة أعني هذا الذي قصدت إلى بيانه والتحذير منه، وإذا كان مطلوبا أن يكون، فدراستي هذه تكون وقائية لكي لا تقع في العمل تحت الأطر الغربية المنطلقة من موقف أنطولوجي إلحادي، وكيف نكون موضوعيين ونحن نكفر بالحقائق المطلقة المتعلقة بالخالق والمخلوق والدنيا والآخرة.

3_ من قال لهم أطرهم ولنا أطرنا وهذا فرع عن الاعتراف بالأطر، فهذا الموقف يقرر وجودها ولكن ينفي تأثير المسلمين بالغربية منها، وهذا غير ممكن في زمن العولمة والانفتاح على كل الجهات، والقراءة لفلاسفة ومفكرين وتبني الكثير من النظريات في مختلف التخصصات في جامعاتنا.

خاتمة تتضمن بعض النتائج:

— الموضوعية التامة أمر صعب إلا أنه من الضروري التقليل من تأثير العوامل الذاتية، لتدخّل الرؤية الوجودية² حين معالجة الموضوعات ومعلوم أن اختلاف شكل المرئي باختلاف زاوية الرؤية.

¹ مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية، جعفر شيخ إدريس، مركز البيان للبحوث والدراسات، الرياض، 1437هـ، ص 153.

— كان السلف ينهون عن مجالسة أهل البدع خاصة في بداية الأمر لعدم تَكُون الأطر الإدراكية العامة، فتسبق البدعة فتكون هي الحاكمة على ما عداها.

— الوعي يتكون من المحتوى الذي في العقل، والتفكير يكون انطلاقا من ذلك المحتوى.

— إذا كانت الموضوعية هي مطابقة ما في الذهن لما في الواقع، فهذا متعذر في الغالب لكن كلما أدركنا لوازم أكثر كلما اقتربنا من التصور التام.

— يردد الكثير لا بد من معرفة الواقع (الحقيقة الموضوعية) لكن لا يمكن إلا معرفة تصورنا للواقع (الحقيقة الذاتية).

— خلو العلوم الطبيعية من القيمة يجعلها أكثر موضوعية من العلوم الإنسانية¹.

— ينبغي الانتباه للأطر التي نعمل تحتها ولا نسلم دائما لما هو شائع.

— الموضوعية (المادية) لا تعترف بخصوصية الإنسان، ولذا فإن الفكر الموضوعي يُعَبَّر عن نفور عميق من الهوية والخصوصية.

في الأخير أقول كما أنه لا وجود لشيء موضوعي مطلقا كذلك لا وجود لشيء ذاتي مطلقا بل الموجود شيء أكثر تفسيرية وأقل تفسيرية فالأول أقرب إلى الموضوعية والثاني أقرب إلى الذاتية والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

Simons, Peter+M.. "ontology". Encyclopedia Britannica, 19 Jan. 2015, ²
<https://www.britannica.com/topic/ontology-metaphysics>. Accessed 13 December 2024

¹ الموضوعية في العلوم الإنسانية، عرض نقدي لمناهج البحث، د. صلاح قنصوه، ص 179.

المصادر والمراجع:

- (1) _ الموضوعية استبدال مصطلح، وإصلاح مفهوم، بليل عبد الكريم، شبكة الألوكة، 2009/11/22م
- (2) _ الموضوعية في العلوم الإنسانية، عرض نقدي لمناهج البحث، د. صلاح قنصوه، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2007م.
- (3) _ مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية، جعفر شيخ إدريس، مركز البيان للبحوث والدراسات، الرياض، 1437هـ.
- (4) أفي الله شك، حمد المرزوقي، ط1، 2004م، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت لبنان.
- (5) كتاب أثر المناهج الغربية في تغريب القراءة الدينية، السيد هاشم الميلاني، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق، ط1، 2024م.
- (6) معايير العلمية، إعداد وترجمة: حسن الهيلالي وحسن بريقي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2015م.
- (7) مقارنة بين مناهج علماء المسلمين القدامى والمعاصرين في دراسة الأديان في ضوء إشكالية الموضوعية، أمين حجي الدوسكي، ط2017م،
- (8) مقال أسطورة النسبية الأخلاقية، د. جوناثان دولتي
- (9) مناهج البحث في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام، مصطفى حلمي، ص175.
- (10) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ج1/ص128.
- (11) الرؤية النقدية للمسيحي في إشكالية التحيز للحضارة الغربية_الحدثا.pdf
- (12) الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، مكتب التبيان للدراسات العربية وتحقيق التراث، إشراف حسن عبد الحفيظ عبد الرحمان أبو الخير، دار ابن الجوزي، ط1، الموسوعة 2011.
- (13) محمد بلفقيه، العلوم الاجتماعية ومشكلة القيم: تأصيل الصلة الرباط: دار نشر المعرفة، 2007، ص. 2.
- (14) منهج عبد القاهر بين الموضوعية والذاتية، السيد عبد الفتاح حجاب، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام، الرياض.

- (15) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، عبد الكريم شرقي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2007م.
- (16) الأيديولوجيا والعلم.pdf
- (17) هيرقليطس فيلسوف التغير وأثره في الفكر الفلسفي، علي سامي النشار وغيره، دار المعارف، ط1، 1969م.
- (18) مناهج النقد الأدبي، وليد قصاب، دار الفكر دمشق، ط2، 2009م.
- (19) إشكالية التحيز، عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1995م.
- (20) الموضوعية في العلوم الإنسانية، صلاح قنصوه، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط2007.
- (21) المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد النجار.
- (22) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمان بن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، ط1، 2004م.
- (23) النظريات العلمية الحديثة، مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها، حسن بن محمد حسن الأسمرى، ط1، 2012م.
- (24) المخصص، ابن سيده، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.